الفصل التاسع

على هامش السنة

ظهرت الكتب الستة التى جمعت جمهرة الأحاديث النبوية فى أوائل القرن الثالث ، وتلمح ذلك فى تواريخ أصحابها وهم رجال مهرة فى هذا الفن ، ولايمكن إنكار جهدهم وعطائهم ..

عاش البخارى بين عامى ١٩٤ ـ ٢٥٦ ، وعاش مسلم بين عامى ٢٠٤ ـ ٢٦١ ، وعاش النسائى بين عامى ٢١٥ ـ ٣٠٣ ، وعاش أبو داود بين عامى ٢٠٢ ـ ٢٧٥ ، وعاش الترمذى بين عامى ٢٠٩ ـ ٢٧٠ ، وعاش ابن ماجة بين عامى ٢٠٧ ـ ٢٧٣ .

كانت أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم متداولة بين الناس خلال القرنين السابقين ، بعضها مكتوب وبعضها مسطور ، وربما اختلط الصحيح والسقيم على العامة ، فكان العلماء يشرحون للناس أمر دينهم ، وينقون منابعه جهد طاقتهم ..

ومعروف أن أبا حنيفة فى العراق ، ومالكا فى الحجاز أسسوا مدارس فقهية لها وزنها بين الجماهير ، تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يوجد فى تاريخ الإسلام من تمرّد على أن السنة ضميمة محترمة إلى القرآن الكريم ، وقد يثور نزاع حول حديثٍ مّا من حيث نسبته إلى صاحب الرسالة وهذا النزاع لايمس الأساس الراسخ أن كتاب الله وسنة رسوله هما ينابيع الإسلام ومعالم الأسوة الحسنة ..

وقد لاحظ العلماء تفاوتا بين طرق الإثبات عند أصحاب الكتب الستة ، إنهم جميعا وجدوا أنفسهم أمام تراث كبير ، فكيف ينتقون منه مايطمئنون إلى صحة نسبته إلى النبى عليه الصلاة والسلام .

كان البخارى ، رحمه الله ، أشدّ الأئمة تحريا للصدق وضبطا له ، وقد اشترط لقبول الرواية ثبوت التلاقى بين الراويين ـ بعد ثبوت المعاصرة طبعا ـ وقد دوّن صحيحه بعد غربلة رائعة لما وجده شائعا ...

وفى صحيح البخارى قريب من ٢٦٠٠ حديث عدا المكرر ..

وكان مسلم أقل تشددا فاكتفى بثبوت المعاصرة ، ولم يبحث عن ثبوت اللقىّ ، كأنه افترض وقوعه أو وقوع مايسد مسدّه وعدد أحاديثه أكبر ..

أما بقية الكتب الستة ففيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع ـ أحيانا ـ .

وهى فى نظرى أدقّ من مسند أحمد الذى جمع قرابة ثلاثين ألف حديث ، لا أشك فى أن بعضها لا أصل له ..

وظاهر أن هؤلاء الأئمة نظروا فيما تجمع لديهم أواخر القرن الثانى الهجرى ، وظاهر كذلك أن البخارى تحرّى ودقق ، وأن ابن حنبل تساهل عندما دوّن ...

ربما أثبت غير البخارى ما تجاوزه البخارى ، وربما أثبت البخارى أحاديث تجاوزها مالك وأبو حنيفة فى القرن الثانى ، وقد عاشا فيه قبل أن يظهر البخارى .

فمالك بن أنس يقرر فى مذهبه الفقهى أن ريق الكلب وعرقه طاهران ، ويستدل على ذلك بما ثبت فى باب « الصيد بالكلب المعلم » ، وبقوله تعالى : « وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »[1] .

وأبو حنيفة يقرر أن المسلم إذا قتل حرا أو عبدا ، ذكرا أو أنثى ، مؤمنا أو كافرًا، قتل فيه، وقوفًا عند ظاهر الآيتين « أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ »[2]، « وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ »[3] .

هل يفهم من ذلك أحد أن مالكا وأبا حنيفة يرفضان السنة مصدراً

---

(١) سورة المائدة : ٤ .

(٢) سورة المائدة : ٤٥ .

(٣) سورة المائدة : ٤٩ .

للأحكام ؟ لأن هناك أحاديث وردت تخالف قولها ؟ لايقول ذلك عاقل ، كما أن البخارى لايتهم بخصومة السنة لأنه اكتفى بألفين وعدة مئات ، وترك الباقى من المرويات الكثيرة الموجودة أمامه وهى ألوف ، بل قيل : مئات الألوف .

إن لإثبات الحديث شروطًا في المتن والسند، قد يختلف فيها العلماء. ولاستفادة الحكم من الكتاب والسنة ! معاً قَدْرَاتٌ ذهنية وخلقية لاتتوافر لكل أحد .

والاتفاق قائم بين السلف والخلف على أن تراث النبىّ عليه الصلاة والسلام ، ينضاف إلى الكتاب الكريم فى شرح الإسلام وبيان تعاليمه ..

والمشكلة التى نواجهها فى عصرنا الحاضر أناس خاصموا أئمة الفقه ، وقالوا : نرفض التقليد المذهبى ، ثم أعملوا عقولهم فيما يتداولون من أحاديث ، ووصلوا إلى أفهام ينكرها القرآن ، ويرفضها الأئمة القدامى ، ويستنكرها أصحاب الفطر السليمة ، فإذا حاكمتهم إلى المقررات الدينية الثابتة ، قالوا لك فى غلظة وجفاء : إنك تنكر السنة وتخاصم الرسول ..!

الحق أننا نواجه أزمة أخلاق إلى جانب أزمة الثقافة .. فقلة البضاعة من العلم محنة ، فإذا انضم إليها حب التطاول على الناس ، وتلمس العيوب للأبرياء زادت المصيبة ...

على أن الإنكار والإثبات للمرويات ليس كلاً مباحا ، كما أن تقرير شريعة الله فى العلاقات الفردية والدولية ، وشئون الأسرة ، وتداول المال الخاص والعام ، وأساليب الحكم والشورى ، وغير ذلك من شئون لايجوز أن يتحدث فيه إلا أهل الذكر . أما العمال والفلاحون والبدو فمالهم ولهذه الشئون ؟

فى الأحاديث المردودة :

يشتغل بعلوم الحديث الآن رجلان كبيران ، الشيخ محمد ناصر الألبانى ، والشيخ عبد الله الصديق الغمارى ، وقد تابعت مايكتبان ، وأخذت عنهما معارف ثمينة ، وهما فى نظرى من الراسخين فى هذا الجانب الثقافى من علوم الدين ...

ولا أكترث لما بينهما من تخالف ، فالأول قريب من السلفيين ، والآخر قريب من الأشاعرة ، وأنا فى دراسة العقائد أنظر إلى الخلاف الموروث نظرة بعيدة عن الفريقين ، لأنى أرفض الآثار الإيجابية والسلبية للفلسفة الإغريقية التى أغارت على تاريخنا العلمى . وأعتمد المنهج القرآنى فيما وراء المادة ، والمنهج القرآنى الكونى فى دراسة المادة نفسها ..

من أجل ذلك تجنبت الحديث فى النظريات الكلامية عند السلفيين والأشاعرة . واهتممت بالجانب العملىّ فى الفقه والسلوك .

وقد ظهر أخيرا كتاب « الفوائد المقصودة فى بيان الأحاديث الشاذة المردودة » للحافظ عبد الله بن محمد الصديق ـ دار الفرقان ـ الدار البيضاء .

قرأت الكتاب فوجدت المؤلف قد أثبت ٤٣ حديثا حكم عليها بالشذوذ ، مع أن أغلبها صحيح الإسناد ، وذلك لما رآه فى متونها من مخالفات .

وبعد دراسة للكتاب رأيت أن أذكر نماذج لما ساق من آثار ، وافقته فى أغلبها وترددت فى بعضها .. فما وافقته فى رده ماجاء ص ٩٢ عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى ، فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»[1].

هذا الحديث شاذ ، لمخالفته لآيات القرآن الكريم ، قال الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »[2] وقال أيضا : « ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ »[3] أى لم يأتهم نذير يذكرهم ، وقال سبحانه فى حق العرب : « وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ »[4] ، وقال أيضا : « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »[5] .

وأمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عاشت فى زمن الفطرة ، لم يأتها نذير ولاعلمت به ، فالعذاب منفى عنها بصراحة هذه الآيات ، والحديث المذكور فى منع

---

(١) مسلم في الجنائز وابن ماجة.
(٢) سورة الإسراء: ١٥.
(٣) سورة الأنعام: ١٣١.
(٤) سورة سبأ: ٤٤.
(٥) سورة السجدة: ٣.

الاستغفار لها شاذ لايعمل به ، وخبر الآحاد لايقدَّم على القرآن الكريم ، وهذا واضح لاخفاء فيه ، ومثله مارواه أحمد فى المسند بإسناد ضعيف عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يارسول الله ، أين أمى ؟ قال : أمك فى النار ، قلت : فأين من مضى من أهلك ؟ قال : « أما ترضى أن تكون أمك مع أمى » فهذا مع ضعفه شاذ أيضا .

ومن المرويات السخيفة أن يجازف شخص بإثبات آثار تمسّ القرآن الكريم ، بل إنى أعد ذلك من السفه المنكور ..

أليس من المضحك أن ينسب إلى ابن مسعود أنه أنكر كون المعوذتين من القرآن الكريم ؟ أتبلغ الحفاوة بالمرويات التافهة هذا الحد من الخساسة ؟!!

أحيانا يخيل إلىّ أن أصحاب المساند جمعوها أوّلاً مسوَّدات تضم كل ماقيل ، على أن يمحوا منها بعد ذلك الأساطير ، ثم ماتوا قبل أن يتموا أعمالهم !

ومن أمثلة ذلك ماجاء فى المسند ج ٦ ص ٢٦٩ عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : لقد أنزلت آية الرجم والرضعات العشر ، فكانت فى ورقة تحت سرير فى بيتى ، فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشاغلنا بأمره ، ودخلت دويبة لنا ـ تعنى شاة ـ فأكلتها .

قال الغمارى : هذا أثر شاذ منكر ، شديد النكارة ، لأن نسخ التلاوة محال ، كما بينته فى جزء ذوق الحلاوة .

ثم من المنكر الذى لايعقل أن تدخل شاة البيت وتأكل ورقة فيها قرآن ولا يعلم أحد ، هذا من الباطل المردود قطعا ، ولو جوزنا أن تأكل شاة ورقة فيها قرآن منسوخ على رأى من يجيز النسخ لجاز أن تأكل ورقة فيها قرآن غير منسوخ ، فترتفع الثقة بالقرآن كله ، لأنه قد يكون أكل منه شىء ، والله تعالى يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ »[1] .

ومن المقرر فى كتاب الله عز وجل أن خلق العالم أجمع تمّ فى ستة أيام ،

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

فكيف يذهل عن ذلك أحد ، فيروى حديثا يفيد أن الخلق استغرق سبعة أيام ؟! ثم يذكر ذلك فى تفصيل شديد البعد عن الواقع القرآنى المعروف . روى مسلم والنسائى وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجرة يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، فيما بين العصر الى الليل»[1].

هذا الحديث شاذ ، لأنه يفيد خلق الأرض وما فيها فى سبعة أيام ، مع أن القرآن يفيد أن خلق السموات والأرض معاً كان فى ستة أيام ، وقد علل البخارى هذا الحديث فى التاريخ فقال : رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعب الأحبار وهو الأصح .

وكعب الأحبار ناقل لخرافات قومه ، ولا وزن له ، ومن العجب أن ينخدع أبو هريرة به ....

الخلاف فى صلاة الجماعة :

بين الفقهاء خلاف فى صلاة الجماعة ، فمنهم من يراها فرض عين ، ومنهم من يراها فرض كفاية ، ومنهم من يراها سنة مؤكدة ..

والأخير أحب الأقوال إلىّ ، وأولاها بالتقديم ، ذلك أن النبىّ عليه الصلاة والسلام ، لم يبطل صلاة الفذ ، بل عدها ناقصة الأجر إلى حد بعيد ، وهذا هو المستفاد من الحديث : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[2].

والتفاوت بين الثوابين شاسع ، لأن الجماعة من شعائر الإسلام ، ولا يُحكم الروابط بين المسلمين كهذا اللقاء المتكرر من الصبح إلى العشاء ..

---

(١) رواه مسلم في المنافقين. (٢) رواه البخاري في الآذان.

والآثار الروحية والاجتماعية للاحتشاد فى المسجد لاحصر لها ، ومايزهد فيها محب لله ورسوله ..

وقد كان الكفار والمنافقون قديما يضيقون بالمساجد ، ويتثاقلون عن الجماعات ، وربما تجمعوا فى بيوتهم أو فى أنديتهم هاجرين الصلوات المفروضة وقد يسخرون منها ومن الدعوة إليها ، كما جاء فى قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ »[1] .

وقد همَّ النبىّ عليه الصلاة والسلام بمهاجمة أولئك العابثين وتحريق بيوتهم عليهم حسما لشرهم ، ولكنه اكتفى بالتهديد ، ولعل ذلك التهديد شتت شملهم لأنهم جبناء ، وذلك فى رأينا معنى ماجاء فى الصحاح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقَد ناسا فى بعض الصلوات ـ لتكرار تخلُّفهم ـ فقال : لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها » يعنى صلاة العشاء والفجر خاصة فقد كانتا أثقل الصلوات على المنافقين ..

ونحن نهيب بالمؤمنين أن يعمروا المساجد ، وأن يزحموا الصفوف ، وأن يقاوموا إغراء الحضارة المادية المعاصرة ، فقد أكثرت من شغل الناس بالدنايا وأبعدت الجماهير عن مرضاة الله ..

ومع ذلك فلا نحكم بفساد صلاة من أدى الصلاة فى البيت أو السوق أو الحقل ، وإن نقص ثوابه ..

وللمحدثين كلام فى هذا الموضوع لاحرج من سوقه :

روى أبو داود وابن ماجَه عن ابن أم مكتوم أنه سأل النبى صلى الله عليه

---

(١) سورة المائدة: ٥٧ــ٥٨.

وسلم : فقال : يارسول الله ، إنى رجل ضرير شاسع الدار ، ولى قائد لايلايمنى ، فهل لى رخصة أن أصلى فى بيتى ؟ قال : هل تسمع النداء ؟ قلت : نعم ، قال : لا أجد لك رخصة»[1].

ورواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى ـ فذكر نحوه ..

ويدل هذا السياق على أن الجماعة فرض عين ، لكن الغمارى يقول : إن هذا الحديث شاذ ، ومما يدل على شذوذه حديث عتبان بن مالك أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، إنى قد أنكرت بصرى ، وأنا أصلى لقومى ، وإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم ، ولم أستطع أن آتى مسجدهم فأصلى لهم ، ووددت أنك يارسول الله تأتى فتصلى فى مصلى أتخذه مصلى ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأفعل إن شاء الله»[2] الحديث رواه مسلم وغيره .

وفيه الرخصة فى التخلف عن الجماعة لعذر ، وهو إجماع ، وقال بعضهم : إن عدم الترخيص لابن أم مكتوم أنه كان يصلى فى المسجد النبوى ، وهذا المسجد خاصة يمتنع التخلف عن الجماعة فيه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم يحضرها ويؤم فيها المؤمنين .

وهذه قضية نخالف فيها الشيخ الغمارى دون جفاء ولابذاء ، وننشد فيها الحق وحده .

لقد علمنا من القرآن الكريم أن الذين عثروا على أهل الكهف بعد مماتهم اختلفوا في شأنهم «إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا »[3].

والآية تشير إلى أن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين كان أمرا معهودا بين الأولين ، ثم جاء الإسلام فكره الصلاة فى المقبرة ! وقال الرسول الكريم : « ألا

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الكهف: ٢١.

تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن هذا»[1].

ويظهر أن العباد فى المساجد قد تتعلق قلوبهم بالمقبورين فيها ، فيتخذونهم شفعاء إلى الله، وقد جاء في سورة الجن « وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا »[2].

ورأيت فى تجاربى مع الناس أنهم يفعلون ذلك ، وقد أهدى الأستاذ توفيق الحكيم أحد كتبه إلى السيدة زينب قائلا فى إهدائه : « إلى حاميتى الطاهرة ..» ! !

ومن ثم فقد توقفت عند نقل الشيخ الغمارى ص ١٠٥ عن أبى هريرة وابن عباس وعائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3] هذا حديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق، وقد عمل به كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين ، ولم يتفطنوا لما فيه من العلل التى تقتضى ترك العمل به ، وذلك أن القرآن الكريم يعارض هذا الحديث من ثلاثة أوجه .

وخلاصة الوجوه الثلاثة أن اليهود آذوا الله ورسوله بتهم شائنة ، استحقوا عليها اللعنة ، وأنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، وحاولوا قتل عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .. فكيف يتصور منهم بعد عدوانهم على المرسلين أن يتخذوا قبورهم مساجد ؟ إن هذا مستبعد .

ونجيب بأن الله وصف اليهود بقول[3]: « وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »[4] فالصالحون أبوا الاعتداء على الأنبياء ، والمجرمون سفكوا دماءهم ، وبعد قتلهم بنيت المعابد على قبورهم تكريما لهم .

على أن هذه المقابر وساكنيها حصدت مع اجتياح الأعداء للأرض المقدسة ، فليس هناك الآن قبر قائم به نبى معروف ! وحلّ محل القبور الدارسة أصنام

---

(١) رواه مسلم واحمد..
(٢) سورة الجن: ١٨.
(٣) رواه البخاري في الصلاة والجنائز والمغازي ومسلم في المساجد.
(٤) سورة الأعراف: ١٦٨.

وأنصاب ومذابح فى الكنائس المسيحية ، وسميت هذه الكنائس باسم قديسين وقديسات ، وهذه التسمية نفسها موضع اعتراض ، فليس هناك معصومون ولامعصومات يلوذ البشر بأسمائهم أو بتماثيلهم .

وقد أشرنا إلى أن تمثال القديس بطرس فى روما تُجدَّد قدمه كثيرا لأنها تبرى من كثرة من يُقَبِّلونها ويتمسحون بها ، فلا إنكار إذا حرم الإسلام هذا كله وجرد المعابد من مظاهر الوثنية ، وجعل المساجد لله وحده ..

الفجوة بين الفقة والأثر

فى عصور الاضمحلال الثقافى وضعت تخوم مفتعلة بين المذاهب الفقهية والكلامية والصوفية ، حتى كاد كل مذهب منها يعتبر دولة مستقلة ؛ لها أتباعها ولواؤها وجنسيتها ..

وهذا وضع شاذ ضال ترك آثارا رديئة فى وحدة الأمة وتراصّ صفوفها وتماسكها أمام خصومها ، وأصاب الإسلام نفسه فى حقيقته ورسالته وغاياته فى هذه الحياة !

ما معنى أن يكون ولاء المسلم لأبى حنيفة أو ابن حنبل ؟

ولماذا يعدُّ منهج أيهما أسلوب حياته الأمثل ؟ ومثله الأعلى الذى يعرضه على الناس أو ينشده لهم ؟ ويَزْوَرّ عن سواه أو يخاصمهم .

إننى زرت بلادا إسلامية كثيرة ، فرأيت وجهة نظر فقهية معينة تحكم الألوف المؤلفة يحتبسون داخل نطاقها ولا يحسنون التنفُّس إلا من خلالها ، ويؤسسون خصوماتهم وصداقاتهم على أساسها ...

وزرت أقطارا لا تعرف الإسلام ، فرأيت فيها ما أنكر ، ورأيت فيها ما يوافق رأى فلان عندنا ، أو يقترب من فهم نفر من علمائنا ..

وعندما ألفت كتابى الأخير « السنة النبوية بين أهل الفقة وأهل الحديث » لقيت العنت من ناس لا يعرفون إلا رأى ابن الصلاح فى القضية المطروحة ، أما العراقى مثلا وغيره كالنووى ؛ وسائر المحققين فلم يمرّ بهم ! !

وأثناء دعوتى للإسلام قلت لأصحابى : إن ديننا يحارب من جبهات عدة ، من اليمين واليسار والوسط ، ومن العجز وأنا أدافع عنه ؛ أن ألتزم برأى واحد اشتهر هنا ، واستخفى هناك ، يجب أن أتنقل بين آراء كل الأئمة ، وأنتفع بشتى الفهوم المأنوسة والبعيدة ..

ولا حرج علىّ أن أقف فى قلعة أبى حنيفة وأنا أتحدث فى نظام الزكاة ، أو أقف فى قلعة ابن تيمية وأنا أتحدث عن نظام الطلاق ، وأن أقف فى قلعة مالك وأنا أتحدث فى نظام الأطعمة .. الخ ، إن أولئك جميعا رجالات الإسلام وخدم رسالته ولا بأس علىّ أن أصطحب عقولهم فيما أواجه من قضايا ..

المهم عندى هو الإسلام الجامع لا الرأى المذهبىّ ..

وأعترف أن بعضا ممن يَتَسَمَّوْن « علماء الدين » عندنا كانوا بلاء على الدعوة فى الخارج ، كما كانوا بلاء على الدين نفسه داخل البيت الإسلامى والشارع الإسلامى .. إنهم أنصاف متعلمين ، يريد كل واحد منهم أن يكون المتحدث الرسمى باسم الإسلام ، وزاد الطين بلة الادعاء الذى لا يسانده وعى مكتمل واستبحار معجب ، كل واحد منهم كما قال الرافعى : أبو حنيفة ولكن من غير رأى ، ومالك ولكن من غير سنة ، والشافعى ولكن من غير أصول ، وأحمد ولكن من غير رواية ..

والذى أطلبه : أمران : الأول سعة المعرفة ، فإن قلة العلم مصيبة ، خصوصا مع التصدُّر للفتوى والحكم والقضاء والدعوة .

والثانى : إرادة الله ، والآخرة ، فإن استغلال الدين للدنيا جريمة الجرائم .

وقد تتناقص الأحكام التى ينتهى إليها الأئمة ، فلنعلم أن السلب والإيجاب هنا سواء ، المهم أن يتحرك المرء بعلم وتجرُّد .

قرأت كلام ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية ، فرأيته يوجب الحدود ، ولا يجعل للتوبة أثرا فى وقفها ، ثم قرأت كلامه فى الفتاوى فرأيته يقف الحدود بالتوبة الصادقة ..

ثم قرأت فى المحلَّى أن الشافعى فى مذهبه القديم كان يقف الحد بالتوبة ، أما بعد

ذهابه إلى مصر فقد حكم بأن التوبة لا تسقط الحدّ ! !

إن كلا الرجلين يناقض الآخر فيما بدأ به وانتهى إليه ! ليكن ، فهذا حق المجتهد لا ينكره عليه عاقل ..

ثم يجيء دورنا نحن لنعالج شئون الناس بتقليد هذا أو ذاك ! أو باجتهاد جديد يصدر من أهله ! وأهله هم أهل الذكر الأتقياء المخلصون ..

ولا حرج عندى قط أن يكون الاجتهاد جماعيا أو فرديا ، وإن كانت الجماعة أحب إلىّ وأجدى !

إن العالم الكبير أمسى مدينة واحدة ، وتقارب الزمانُ والمكان مع تقدم العلم المادى .. فلا يسوغ أن يكون العالم الإسلامى مقطع الأوصال ، يحيا كل قطر منه معزولا علميا وعمليا عن غيره من أقطار الإسلام القريبة والبعيدة ..

ومن بلغهم شيء من علوم الإسلام يبلغهم غيره ، ينبغى أن يستقبلوا الجديد الذى غاب عنهم ببصيرة مفتوحة وتفهّم حسن ..

وأنتهى من هذه الفذلكة إلى أن علوم الفقه ، وعلوم السنة لها رجال كثيرون تختلف مشاربهم ومناهجهم الفكرية والسلوكية وأن تاريخ هذه العلوم فى تراثنا جدير بالنظر الدقيق ، حتى نحسن بناء مستقبلنا على بصيرة .

إن المدارس النقلية والعقلية فى الإسلام كثيرة ، وهى الأساس الأهم فى ارتقاء حضارته وسبق أمته ..

ويوجد الآن من يريد إهالة التراب على مدرسة الأصوليين ؛ وسدّ آفاقها ! ومن يريد محو الفقه المذهبى وتجفيف بحاره العميقة ! ومن يريد استبعاد كل تفسير إلا ما كان أثريا ، ومن يريد تغليب الأثر الواهى على القياس القطعى ، ومن يتطير إذا سمع كلمة فلسفة إسلامية ، ومن يرفض كل حديث عن التربية والتصوف وأعمال القلوب ...

ماذا يبقى بعدئذ من علوم الدين ؟ أخبار القصاص ، ورواية الحديث دون فقه ؟

ثم نقول مع البحترى :

وكأن الزمان أصبح محمولا هواه مع الأخسِّ الأخسِّ

كيف ننهض مع هذا التحجير؟!

* * *

وبين السند والمتن

هل علماء الحديث الأقدمون اهتموا بالسند ولم يهتموا بالمتن؟ وإذا كان فيهم من شغلته الرواية ورجالها ، فهل الفقهاء ذهلوا عن مناقشة المتون وإدامة النظر فيها؟ لنذكر هنا كلام الدكتور مصطفى السباعى من كتابة « السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى » :

ذكر الدكتور السباعى العلامات التى تدل على الوضع ، وقسمها إلى قسمين : علامات فى السند ، وعلامات فى المتن .

علامات الوضع فى السند :

١ ـ أن يكون راويه كذابا معروفا بالكذب ولا يرويه ثقة غيره ..

٢ ـ أن يعترف واضعه بالوضع .

٣ ـ أن يروى الراوى عن شيخ لم يثبت لقياه له ، أو ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذى ادعى سماعه فيه ...

٤ ـ وقد يستفاد الوضع من حال الراوى وبواعثه النفسية ، مثل ما أخرجه الحاكم ، عن سيف بن عمر التيمى ، أنه قال : كنا عند سعد بن طريف ، فجاء ابنه من الكتاب يبكى ، فقال : مالك؟ فقال : ضربنى المعلم . فقال سعد : لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس ، مرفوعا « معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المساكين » . ومثل حديث : « الهريسة تشد الظهر » فإن واضعه محمد بن الحجاج النخعى كان يبيع الهريسة .

علامات الوضع فى المتن :

١ ـ ركاكة اللفظ : بحيث يدرك العليم بأسرار البيان العربى أن مثل هذا اللفظ ركيك ، لا يصدر عن فصيح ولا بليغ ، فكيف بسيد الفصحاء صلى الله عليه وسلم ؟ قال الحافظ بن حجر : ومحل هذا إن وقع التصريح بأنه من ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم .

قال ابن دقيق العيد : كثيرا ما يحكمون بذلك ـ أى بالوضع ـ باعتبار أمور ترجع إلى المروى ، وحاصله أنهم لكثرة ممارستهم لألفاظ الحديث ، حصلت لهم هيئة نفسانية ، وملكة قوية ، يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبىّ وما لا يجوز .

٢ ـ فساد المعنى : بأن يكون الحديث مخالفا لبديهيات العقول ؛ من غير أن يمكن تأويله ..، أو أن يكون مخالفا للقواعد العامة فى الحكم والأخلاق ..، أو داعيا إلى الشهوة والمفسدة ..، أو مخالفا للحسّ والمشاهدة ..، أو يكون مخالفا لقطعيات التاريخ ، أو سنة الله فى الكون والإنسان ..

٣ ـ مخالفته لصريح القرآن بحيث لا يقبل التأويل ..، ومثل ذلك أن يكون مخالفا لصريح السنة المتواترة ..، أو يكون مخالفا للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسنة ...

٤ ـ مخالفته لحقائق التاريخ المعروفة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ..

٥ ـ موافقة الحديث لمذهب الراوى وهو متعصب مغال فى تعصبه ..

٦ ـ أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله ؛ لأنه وقع بمشهد عظيم ، ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد ..

٧ ـ اشتمال الحديث على إفراط فى الثواب العظيم على الفعل الصغير ، والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقير ..

ثم قال السباعى رحمه الله : هذه هى أهم القواعد التى وضعها العلماء لنقد الحديث ، ومعرفة صحيحه من موضوعه ، ومنه ترى أنهم لم يقتصروا فى جهدهم على نقد السند فقط ، أو يوجهوا جُلَّ عنايتهم إليه دون المتن ، كما سيأتى فى زعم

بعض المستشرقين ومشايعيهم بل كان نقدهم منصبا على السند والمتن على السواء ، ولقد رأيت كيف جعلوا لأمارات الوضع أربعا فى السند ، وسبعا منها فى المتن ، ولم يكتفوا بهذا ؛ بل جعلوا للذوق الفنى مجالا فى نقد الأحاديث ، وردها أو قبولها ، فكثيرا ما ردوا أحاديث لمجرد سماعهم لها ، لأن ملكتهم الفنية لم تستسغها ولم تقبلها ، ومن هذا كثيرا ما يقولون : « هذا الحديث عليه ظلمة، أو متنه مظلم ، أو ينكره القلب ، أو لا تطمئن إليه النفس » .

وذكر الأستاذ محمد الصباغ علامات الوضع فى المتن ، وزاد فيها علامة مهمة حيث قال : مخالفته لمقصد من مقاصد الشريعة ، أو هدف من أهدافها ، أو قاعدة من قواعدها ، مثل : « خيركم بعد المئتين من لا زوجة له ولا ولد » فحفظ النسل مقصد من مقاصد الشريعة .

أخيرا يسرنى إثبات هذا النقل النافع عن الكتاب الرائع الجيد الذى ألفه الدكتور صلاح الدين أحمد الأدلبى « منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوى » زاده الله توفيقا .

وقد عرض المؤلف الجانب التطبيقى للقواعد الآنفة ، وذكر أن ابن الجوزى ألف كتابه المشهور « الموضوعات » وكأنه استلهمها فى أحكامه الصارمة ، ولم يبال وهو حنبلى أن يذكر عددا من الأحاديث المكذوبة جاءت فى المسند ، منها على سبيل المثال :

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عسقلان أحد العروسين ، يبعث منها يوم القيامة سبعون ألفا لا حساب عليهم ، ويبعث منها خمسون ألفا شهداء ، وفودا إلى الله عز وجل ، وبها صفوف الشهداء ، رءوسهم مقطعة فى أيديهم ، تثج أوداجهم دمًا ، يقولون ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ، إنك لا تخلف الميعاد ، فيقول : صدق عبيدى ، اغسلوهم بنهر البيضة، فيخرجون منها نقيا بيضا، فيسرحون في الجنة حيث شاؤوا»[1].

وعسقلان لم يدخلها الإسلام فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم .

والغريب أن ابن حجر العسقلانى دافع دفاعا حارًا عن أمثال هذه الأحاديث

(١) رواه أحمد في مسنده (٣:٢٢٥).

محاولا تصحيحها ، وليس هذا عليه بمستغرب ، فهو الذى صحح حديث الغرانيق ، وفتح به باب شر ، لا يزال يدخل منه الأفاكون لينالوا منا .. غفر الله لنا وله .

والحق أن المسند تضمن متونا لا يمكن قبولها . ومن واجب العلماء أن ينبهوا إليها ، ونحن نعتذر عن صاحب المسند بقول الشاعر :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وأحمد بن حنبل من رجالات الإسلام الشامخين .

المرأة وخدمة السنة

علوم السنة من أهم علوم الشريعة ، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حفيظ .

وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل بهذه العلوم ، بله أن يبرزن فيها ويبلغن مرتبة الإمامة ؛ حتى قرأت رسالة « السنة النبوية فى القرن السادس الهجرى » للدكتور محمود إبراهيم الديك ، فوجدت عالمات بالسنة ، لا يُشقّ لهن غبار ، ولَسْن نزرا يسيرا ؛ بل عشرات من العالمات الثقات ..!

والقرن السادس ليس من قرون الازدهار العلمى فى تاريخنا ، بل هو من أواخر العصر العباسى الثانى ، عندما مالت شمس الدولة للغروب ، ثم سقطت تحت براثن التتار فى منتصف القرن السابع !

ومع طبيعة هذا القرن الذابلة ؛ فإن علماء المسلمين كانوا يستميتون فى بناء المجتمع وإشاعة الحياة فى جنباته ، إذا كانت الأحوال السياسية مترديه ؛ وعمل الحكام هابطا ..

وقد نتج عن ذلك أمر عجب ، فإن التتار المنتصرين دخلوا فى دين الأمة المهزومة ؛ إذ كان مستواها العقلى والخلقى أرقى .

إننا لو فرضنا أن « ناميبيا » واتتها قوة عسكرية مباغتة ؛ فهزمت انجلترا أو

أمريكا ، إنها تكسب معركة وحسب ، أما البقاء الحضارى فهو من حظ الأرشد والأرفع ، ستطويها حضارة الغرب الأرجح فى الميزان . من أجل ذلك رأينا التتار بعدما هزموا المسلمين دخلوا فى دينهم !

ونسأل : من صنع هذا الرجحان الأدبى ؟ من جعل الأمة المغلوبة تبقى سيدة الموقف وإن ضاعت عسكريا ؟؟ إنهم العلماء والدعاة والمربون ! ! هؤلاء هم الجنود المجهولون الذين أنقذوا رسالة الإسلام عندما عبثت بمستقبلها السياسة !

وقد تكررت هذه النماذج فى العالم كله ، فإن الشعب الألمانى حفظ مستقبله ، واستعاده بعدما أضاعه « هتلر » وكذلك الشعب اليابانى ...

المهم أن تكون أعمدة الحضارة فى تاريخ الأمة قائمة لا منهارة ، وقد نظرت فى ماضينا الثقافى فوجدت قيادنا الروحى والعلمى أقوى وأنضر من قيادنا السياسى ، بل إن مؤرخين كبارا كتو ينبى ، وأرنولد توماس ؛ لاحظوا أن رقعة الإسلام اتسعت أيام الهزائم الكبيرة أكثر مما اتسعت أيام الانتصارات الخطيرة ..

ونعود إلى النشاط النسائى فى خدمة السنة النبوية ، كما ذكره الدكتور محمود الديك فى رسالته الرائعة ، ونسجل عددا من هؤلاء النسوة الأئمة غير متقيدين بترتيب ما ..

أول هؤلاء الأساتذة السيدة المُسنِدة ـ بصيغة اسم الفاعل ـ شهدة بنت الإبرى الكاتبة ، وكانت ذات دين وورع وعبادة ، سمعت من العلماء الكثير ، وعُمِّرت ـ عاشت قريبا من مائة عام ـ وكانت مليحة الخطّ ! ! لم يوجد فى زمانها من يكتب مثلها ، وقد تزوجت أحد وكلاء الخليفة ، وقضت حياتها فى الدراسة والتعليم ..

لا يعنينى هنا أن أذكر أسماء الرجال الذين تلقت عنهم ، وإنما يهمنى أن أذكر بعض من تَلَقَّوا العلم عليها ومنحتهم إجازة علمية بالرواية والتحديث ...

قالوا : سمع منها أبو سعد بن السمعانى ، وروى عنها الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، وهو المؤرخ المشهور ، والموفق بن قدامة الفقية الحنبلى الثقة ، كما حدَّثَ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أنها من شيوخه ! !

وابن الجوزى من أرسخ الوعاظ قدما ، وهو مؤرخ ومفسر ومحدث له مكانة

سامقة ! وقد روى عنها حديثا طريفا ندع سنده ونذكر متنه لما فيه من عبره ، فقد نقلت عن عبد العزيز بن يحيي النخعى أنه كان يصلى فى مسجد على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقرأ الإمام ذات ليلة « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقطع صلاته ، وجُنَّ ، وهام على وجهه ، ولم يوقف له على أثر ! !

والعاطفة الدينية المشبوبة قد تكون لها آثار مدمرة عند بعض الناس ، وأرى أن مثل هذه المرويات إذا سمح بها فى مجلس وعظ فيجب ألا تمر دون تعليق يضبط معناها ، وينفى ضررها ..

والدعوة الدينية فى عصرنا تحتاج إلى فقه وروية وذكاء .

وابن الجوزى فى كتابه « صيد الخاطر » يلفت النظر إلى هذه الحقيقة ، وهو كتاب عامر بالنظرات النافذة والنقد اللاذع ، والوعظ الحق ..

وهذا الحديث الذى روته شهدة بنت الإبرى ، يحسن أن يكون وصفا لسيدة أخرى من سيدات القرن السادس هى : « شمس الضحى » المتوفاة سنة ٥٨٨ هـ ، كانت تلقى الدروس فى مساجد بغداد ، وكانت معروفة بالزهد والتقوى والإقبال على الله ، ولكن علاقتها بالله لم تورثها شيئا من التطرف العاطفى المهلك ، وقد روت بعض السنن ، وصحبت الشيخ أبا النجيب السهروردى ..

ووَدِدْتُ لو أن مساجد العواصم الكبرى فى عالمنا الإسلامى المعاصر يدرس بها مثل هذا الصنف من الواعظات القانتات المجيدات ..

إن الحاجة إليهن مُلِحَّة مع الغزو الحضارى الفتان الذى نتعرض له ، لكن دون ذلك جنادل من أدعياء التديُّن الزاعمين بأن المرأة لم تخلق لهذا (!) كأنها لا تصلح إلا فراشا لفحل لا هنا ولا هناك ! !

ولم تكن شمس الضحى وحدها فى هذا المجال النبيل ، بل كان هناك أيضا « ضوء الصباح » بنت المبارك البغدادية المدعوة بخاصة العلماء ، وهى سيدة اشتهرت بكثرت تلاوتها للقرآن الكريم ، وكانت تعقد مجلس الوعظ فى رباطها ، وتزوجها الشيخ أبو النجيب السهروردى .

وممن روى السنة عنها أبو سعد السمعانى .

ومن المحدثات أيضا « بلقيس بنت سليمان بن أحمد بن الوزير نظام الملك » ولدت بأصبهان سنة ٥١٧ وتوفيت سنة ٥٩٢ هـ ، وكان لها شيوخ من الرجال والنساء ، وسمع منها جماعة من العلماء ، وحدث عنها يوسف بن خليل وغيره .

لنترك هذا السرد ، لنتناول الموضوع من ناحية أخرى .

لنا منها اجازة

لقد أفدت كثيرا من كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذرى ، وأنا أُدرِّس لجماهير المصلين الذين يعمُرون بيوت الله ، وما أحسب المؤلف رحمه الله ترك حديثا فى قضية تعرَّض لها ، وإن كان خلط بين الصحيح والسقيم خلطا بيِّنا ، وعُذْره أنه يروى كل ما ورد ، وأنه لا يخدع القارئ فيتركه حائرا فى مَيْز هذا من ذاك ، كلا .. !

إنه يَعْزو كل حديث إلى مصدره ، فما كان من رواية البخارى ومسلم فقد تجاوز القنطرة ، وما كان من رواية غيرهما نقد السند ببصيرة وذكر ما يلحظه من ضعف ، إما بصيغة التمريض وهى « رُوِى » أو بذكر اسم الراوى المتَّهم ! !

ولكن كثيرا من القراء لا يبالون بصحيح ولا ضعيف ، ويروون كل ما يقرءون !

وقد لاحظتُ أن المنذرى فى كتابه يحترم الشواهد من الصحاح إذا ساندتْ حديثا فيه ضعف ، ومن ثم قبل حديث « النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأوثان » على حين رفض الألبانى الحديث ، وحكم بوضعه ! ووجهة نظر المنذرى أن حديث مسلم عن أول ثلاثة تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ... يصدِّق الحديث الوارد فى القراء الفَسَقة ، وأيًّا ما كان الأمر فالخطب سهل ، وشكَر الله للرجلين الباحثين ، فقد يسّروا لنا علما نافعا ..

استوقفنى وأنا أقرأ فى تراجم محدِّثى القرن السادس أن أبا البركات البغدادى ـ من علماء السنة ـ كان له أختان ، إحداهما أمّ الحياء حفصة ، وهى راوية موثقة دارسة ، قال المنذرى عنها : ولنا منها إجازة ؛ كتبت عنها فى شوال سنة ٦٠٨ هـ ! وتوفيت هذه السيدة التى تلقَّى عنها المنذرى سنة ٦١٢ هـ ..

وهناك سيدة أخرى « أم حبيبة الأصبهانية عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية العبشميَّة » ، قال الحافظ المنذرى فى التكملة : حدّثت الناس ، ولنا منها إجازة ، كتبت بها إلينا من أصبهان فى ذى القعدة سنة ٦٠٦ هـ !

إن هذا الإمام الضخم يذكر دون تحرُّج أنه تلقىَّ عن نساء فضليات ، أجَزْنَه ، وأذِنَّ له بالتحديث .. ويستطيع القارئ أن يقرأ أسماء عشرات فى قرن واحد من أولئك العالمات البارعات فى الدراسات الإسلامية ...

أما زينب بنت الشعرى وتدعى حرّة ! [٥٢٤ ـ ٦١٥] هـ ، فقد قال عنها ابن خَلِّكان: لنا منها إجازة كتبتها سنة ٦١٠ هـ.

يا عجبا كبار المؤرخين والمحدثين يذكرون بتواضع العلماء وصدقهم أنهم أخذوا العلم عن نساء معروفات ، وأنهم نالوا منهن شهادات تقدير وتكريم وثقة ! !

ماذا حدث لأمتنا فَخَلَتْ الساحة من طالبات العلم وأساتذته ، وجاءت قرون أمسى فيها ذهاب فتاة إلى مدرسة جريمة ! بل خَلَتْ المساجد من العابدات فأضحت صلاة المرأة فى مسجد منكرا .. ! !

وصار ذكر اسم المرأة ؛ أمًّا كانت أو زوجة ، شيئا إدًّا ، وخيَّم صمت مطبق على العالم النسائى ، فما يعرض للنساء ذكر فى حديث عابر ، ولو حدث لأمرٍ مَّا أن ذكر اسم امرأة ؛ فعلى وَجَل ، وبعد اعتذار يقول فيه المتحدث للسامعين . حاشاكم ، أو لامؤاخذة ، وقد رأيت ذلك بعينىّ فى أقطار شتى ! !

فى قريتنا ـ من مائة عام ـ كان النساء يذهبن إلى الأسواق يشترين السلع ثم يعدن بها إلى بيوتهن ، وكن يذهبن إلى الحقول يشاركن فى البذر والرىّ والحصاد ! وما رُئيت امرأة قط فى مسجد ، ولا أدّت فيه صلاة ، سواء كانت شابة أو شيخة ! ! كان المسجد محظورا عليهن ؛ لأن رواية شاردة قررت ذلك ، كما كانت المدرسة محظورة عليهن ، لأن رواية فاسدة أوجبت عليهن الأمِّية ! !

ويوجد الآن من العاملين فى الحقل الإسلامى من يكره أحوال المرأة فى هذا العصر ، ويريد العودة بها إلى الأوضاع المأنوسة منذ مائة عام صائحا : لا عمل للمرأة إلا ولادة الرجال (!)

وأعود إلى تاريخنا فى القرن السادس لأقرأ فيه أن الحافظ أبا العلاء بن العطار ـ وكان إمام همدان فى علوم الحديث والقراءات ؛ والأدب والزهد ؛ وحُسْن الأسلوب والتزام السنة ـ كانت له ابنة اسمها « عاتكة بنت أبى العلاء » وكانت من المحدِّثات المتقنات لعلوم السنة !

قالوا : سمعت الكثير من أبى الوقت عبد الأول السنجرى ، وقدمت إلى بغداد من همدان ، ودرست السنة ...

قال محب الدين النجار : كتبنا عنها ... وتوفيت رحمها الله سنة ٦٠٩ هـ ، قامت نصف الليل وتوضأت ، وكانت ليلة شديدة البرد ، ثم وقفت فى محرابها تصلّى ، فلما سجدت ماتت !! رضوان الله عليها ، وكأن فيها قول الشاعر :

فى ظلام الليل منفردًا قام يدعو الواحد الصمدا
عابد لم تُبقِ طاعته منه لا روحا ولا جسدا

ونختم بتاريخ فاطمة بنت سعد الخير الأنصارى الأندلسى التى ولدت بالصين سنة ٥٢٢هـ وتوفيت بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ ، تلَقّت العلم عن والدها ، وعن غيره من المحدثين الكبار ببغداد ، ثم قامت بالتدريس فى القاهرة ودمشق ، وسمع منها جماعة من الشيوخ ـ منهم شيوخ المنذرى الحافظ الضخم ، الذى يقول عنها : سمع منها شيوخنا ورفقاؤنا ، ولنا منها إجازة (!) .

لقد جاءت من الصين مع والدها ، وتلقت العلم فى بغداد ، ثم رحلت إلى دمشق ! ثم استقر بها المقام فى القاهرة حتى توفيت بها ، ودفنت فى سفح جبل المقطم !

وأظن قبرها دَرَس مع قبور المئات من علماء الدين والأدب واللغة ...

والمأساة أن المرأة التى ذرعت الطريق من الصين إلى القاهرة والتى جاء أبوها من بلنسية فى الأندلس ، إلى الشرق الإسلامى ، ليخدم العلم فى أرجائه الرحبة ، جاء بعدها فى هذه السنين العجاف الهابطة من يقول : تخرج المرأة من بيتها لأمرين : إلى الزوج ، أو إلى القبر !!

ما أبعد الشقة بين عصر وعصر ، وبين أسلاف وأخلاف بين أناس أحيوا الإسلام وأناس أماتوه .

مبادرات فى العمل العام :

وكتب الأستاذ حسن عبد الوهاب عن النشاط النسائى فى بعض العصور الإسلامية ، فكشف عن جانب مهم من دعمها للمبرات العامة ، وسدِّها لشتى الثغور الاجتماعية ، وبروزها فى بذل الخير وتفريج الكربات ، قال :

« مامن ناحية من نواحى حضارتنا وثقافتنا إلا ولها فيها نصيب موفور ، فهاهى الفتوحات الإسلامية ، ساهمت فيها مع الرجال ، واشتركت فى ميادين القتال ، وداوت الجرحى ، واكتتبت بمالها وحَلْيها وشَعْرِها ، لمساعدة الجيوش .

أما أثرها فى النهضة العلمية ، فقد اعترف به أجلة العلماء ، ويكفى أن نعرف أن أبا نواس الشاعر يقول عن نفسه : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين أمرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى » ، وأن من شيوخ العلامة المحدث ابن عساكر مؤرخ الشام نَيِّفاً وثمانين امرأة ، وأن الخوارزمى الشاعر المشهور كان من محفوظاته أكثر من عشرين ألف بيت من شعر النساء ، وأن كثيرا من أجلة العلماء تلقوا العلم عن سيدات ، وحصلوا على إجازات منهن .

وإنه ليسر المشتغل بالعمارة الإسلامية أن يرى فى جميع الأقطار الإسلامية آثارا أَمَرْنَ بإنشائها من مالهن الخاص احتسابا لله .

وكفاهن فخرا ماقامت به السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، فإنها كانت من أفراد الدهر ، فقد أنفقت أموالها الطائلة بغير حساب ، فى تحصين الثغور ، والحصون ، ثم نظرت إلى مايلاقيه الحجاج من المشاق فى الذهاب من العراق إلى بيت الله الحرام ، فأرسلت المهندسين وأمدَّتهم بالمال والعمال ، فقسّموا الطريق بين مكة وبغداد إلى خمس عشرة مرحلة ، وأنشؤوا فى كل واحدة منها بئرا أو اثنتين ، وأنشؤوا الصهاريج والحياض لأختزان مياه الأمطار ، وشيَّدتْ فى بعض المراحل قصورا وقبابا ومساجد بحسب الحاجة ، واستمر العمال والمهندسون يعملون على جرّ

الماء إلى مكة بلا مبالاة بالنفقات الباهظة ، وهى باقية إلى الآن ، وتعرف « بعين زبيدة » وحينما عرضت عليها مصاريف هذه العين ألقت الحساب فى النهر وقالت : « تركنا الحساب ليوم الحساب » .

ولسيدات البيت العباسى ولع بتعمير الحرم المدنى ، وكانت السيدة خالصة إحدى جوارى الرشيد أول من أحدث السقايات فى صحن المسجد النبوى .

وقد أنشأ النساء كثيرا من المساجد والخوانق ، والرُّبُط والمدارس ، فى الأندلس والعراق والحجاز والشام وفلسطين ، وكلها متوَّجة بأسمائهن .

وكان لمصر نصيب موفور من هذه المنشآت التى أدت رسالتها الدينية والثقافية والاجتماعية .

وإذا رأيناها تنشئ الربط والخوانق ، فالمرجَّح أنها خصصتها للنساء ، فقد وجد مكتوبا على الخانقاه التى أنشأتها بدمشق حوالى سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م ، السيدة فاطمة بنت الملك الكامل محمد مانصه : « وقفت هذه الخانكاه فاطمة بنت الملك العادل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب على الفقيرات المقيمات بها ، وإظهارا للصلوات الخمس والمبيت فيها » كما أن التاريخ أيَّد ذلك .

إذن فهى التى فكرت فى بنات جنسها فخصَّصت الخوانق والربط لإيوائهن ، وتثقيفهن . وتعتبر دورا لحماية النساء ، وسنكتفى بذكر ما أنشئ منها بمصر :

كان بالقرافة الكبرى عدة دور ، يقال للدار منها رباط ، على هيئة ماكانت عليه بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، خصصت لإقامة العجائز والأرامل ، والمنقطعات ، وكانت لها مرتبات للصرف على المقيمات بها ، وكان لهن مجالس وعظ مشهورة .

ونظرا لأن القرافة الكبرى كانت آهلة بالسكان ، عامرة بالمساجد والجواسق والبساتين ، وكانت معتبرة من متنزهات مصر ، وخاصة فى الليالى القمرية ، فقد أنشئت فيها أيضا الربط الكثيرة ، ومنها رباط بنت الخوّاص ، ورباط الأشراف الذى أنشأه أبو بكر محمد بن على المادرائى ، وخصصه لإقامة نساء الأشراف . وأنشأت السيدات بها ربطا لإقامة الفقيرات والأرامل فيها ، أذكر منها :

رباط رياض : أنشأته السيدة رياض سكرتيرة الحافظ لدين الله بجوار مسجدها لإقامة النساء المنقطعات .

رباط الحجازية : أمرت بإنشائه السيدة فوز جارية على بن أحمد الجرجرائى الوزير بجوار مسجدها ، وأوقفته على أم الخير الحجازية الواعظة ، وكانت الحجازية واعظة زمانها ، وكانت من الخيِّرات ، وقد تصدّرت حلقات الدروس والوعظ فى جامع عمرو بن العاص حوالى سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م ، كما عُنِيَتْ بتثقيف المقيمات بهذا الرباط .

رباط الأندلس : أنشأته السيدة علم الآمرية أم ابنة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بجوار مسجدها لإقامة العجائز والأرامل والمنقطعات ، وكان لهذه السيدة صدقات كثيرة ، وكانت تبعث إلى الأشراف بصلات جزيلة ، وترسل إلى من أخنى عليهم الدهر من أرباب البيوت والمستورين بأموال كثيرة .

رباط البغدادية : هذا الرباط كان بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس الجاشنكير ، أمرت بإنشائه السيدة الجليلة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م للشيخة الصالحة زينب ابنة أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية ، فأنزلتها به ، ومعها عدد من السيدات الخيرات ، وأمرت بالصرف عليهن .

وكان يختار لرئاسة هذا الرباط سيدات مثقفات لتهذيب وتعليم المقيمات فيه ، وممن تَوَلَّيْنَ مشيخته ، الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أمام زينب بنت عباس البغدادية ، وكانت فقيهة وافرة العلم زاهدة واعظة ، مخلصة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكانت تحضر مجلس الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فاستفادت منه ، وقد وصفها بالفضيلة والعلم ، حتى إنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وسرعة فهمها ، وقد ختم القرآن على يديها كثير من فضليات النساء ، وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ، ودمشق ، وصار كل من تتولى رئاسة هذا الرباط يقال لها البغدادية .

وقد خصص لإقامة النساء اللاتى طلقن أو هجرن حتى يتزوجن ، أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن . وكانت بقايا هذا الرباط موجودة إلى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٦م ، وتنحصر فى زاوية بها بقايا مقرنصات قبتين ، بهما أثر زخارف جصّية ، ثم استبدلته وزارة الأوقاف ، وهدمه المستبدل ، وأنشأ مكانه منزلا رقم ١٨ بالدرب الأصفر ، قسم الجمالية .

رباط سنقر السعدى : أنشأه الأمير شمس الدين سنقر السعدى ، نقيب المماليك السلطانية سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م ، بجوار مدرسته بشارع السيوفية ، وخصصه لإقامة النساء المنقطعات والأرامل ، ولم يبق من هذه المجموعة سوى المدخل والقبة والمنارة ، وهى بقايا معمارية على جانب عظيم من الأهمية .

خانقاه أم أنوك : هذه الخانقاه بصحراء قايتباى ، أنشأتها السيدة طغاى أم أنوك زوجة الناصر محمد بن قلاوون حوالى سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م ولعلها كانت مخصصة للنساء ، حيث نرى المقريزى يقول : « وجعلت بها صوفية وقراء ، ورصدت لها الأوقاف الكثيرة ، وقررت لكل جارية من جواريها مرتبا » . وإلى الآن توجد بقايا هذه الخانقاه ، وتنحصر فى إيوان وقبة ، وبقايا من خلاوى الصوفية .

رباط زوجة إينال : هذا الرباط بالخرنفش ، أمرت بإنشائه السيدة الجليلة خوند زينب زوجة السلطان إينال سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م وخصصته لإقامة الأرامل ، ووقفت عليه الأوقاف التى تغل للصرف عليه ، ومازال هذا الرباط موجودا بجميع تفاصيله ، ويشتمل من الداخل على إيوانين ، بالشرق منهما المحراب ، وحول الحوش وأعلى الإيوان الغربى غرف للمقيمات فيه ، وليس للحجرات ولا للقاعات به شبابيك مطلة على الخارج ، وقد بالغ واضع تصميم هذا الرباط فى جعله بمعزل عما هو خارج عنه ، حتى إنه لم يترك فيه مايؤدى إلى الخارج إلا الباب ، وهذا الباب يوصل إلى داخل الرباط بدهليز طويل فيه تعاريج .

ظلت دور كفالة المرأة تؤدى وظيفتها فى العصر الإسلامى إلى أن نضب معين

أوقافها فى العصر العثمانى ، فأهُمِلتْ وتخرّبت ، على أننا وجدنا سيدات العصر العثمانى ـ وإلى وقت قريب ـ كُنّ يُعنَيْنَ بمن يتصل بهن من النساء ، فقد كن يعنين بتربيتهن وتزويجهن ، كما كن يشركْنَهن فى ميراثهن أو أوقافهن ، مما كان له خير أثر فى كفالة المرأة وصيانتها » .

أقول : ثم مات النشاط النسائى فى القرون الأخيرة ، وجاء فى هذا القرن من يرى إماتته إحياء للسنة ، وعودة إلى الصراط المستقيم ! والجهالة فنون ! !

الدراسة الأزهرية ومصادر التشريع

كنت مع الأستاذ الشيخ محمد أبو شهبة ، وهو يذيع شروحا جيدة لصحيح البخارى من إذاعة مكة المكرمة ، كان علمه غزيرا وبيانه جميلا ، رحمة الله عليه .

وفى يوم ما رأيته بادى الغضب ، فسألته : مالى أراك مهتاجا ؟ قال : ألم تر إلى فلان يشكك في حديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم...»[1] وهو من الصحاح ؟

قلت : إننى اطلعت على ماقاله علماء الأحياء فى الموضوع ، ليس فى كلامهم نفى ولاجزم بأن الذباب من الحشرات التى تحمل فى جناحيها الداء والدواء معاً . فليبحثوا ما شاؤوا ، والحديث باق عندنا على حكمه! فإذا استقروا بطريق القطع على أن أجنحة الذباب تحمل المرض والترياق ، كان الحديث من آيات النبوة ، وإلا فلهم اجتهادهم الظنى ، ولنا حديثنا الظنى .

ولن تهى للإسلام قاعدة أو تسقط منه شرفة إذا اختلفت النتائج بالسلب أو الإيجاب ..

المهم هى اليقينيات .. ! لكن الشيخ رحمه الله ، اتجه إلى أن خبر الواحد يفيد اليقين ! ! قلت : أهذا ماتعلمناه فى الأزهر؟ أخدَعَنا مشايخنا وهم يشرحون لنا علوم الحديث ...؟

---

(١) رواه البخاري.

كتب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، فى كتابه : « الإسلام عقيدة وشريعة » فصلا شرح فيه الفروق بين الظن واليقين ، فى المعرفة الدينية ، جاء فيه مايلى :

إذا كانت العقيدة لاتثبت إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته ، كان لابد من تبيين المبادئ التى تقوم عليها قطعيّة السنة أو ظَنِّيَتُها .

وأول ما يجب التنبه له في هذا المقام، أن الظَّنِّيَةَ تلحق السنة من جهتي الورود والدلالة . فقد يكون فى اتصال الحديث برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شبهةٌ فيكون ظنيَّ الورود ، وقد يلابس دلالته احتمال فيكون ظنى الدلالة ، وقد يجتمع فيه الأمران : الشبهة فى اتصاله ، والاحتمال فى دلالته ، فيكون ظنيا فى وروده ودلالته .

ومتى لحقت الظنية الحديث على أى نحو من هذه الثلاثة ، فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها ، وإنما يثبت الحديث العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعيا فى وروده وفى دلالته .

ولكى يتضح مناط القطعية والظنية فى ورود الحديث ، ينبغى أن نبين ماقرره العلماء فى التواتر والآحاد ، ليكون منارا يهتدى به من يريد الوصول إلى الحق .

قسم العلماء السنة إلى قسمين : ماورد بطريق التواتر ، وما ورد بطريق الآحاد .

وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حدًّا من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب ، ولابد أن يكون ذلك متحققا فى جميع طبقاته : أوّله ومنتهاه ووسطه ، بأن يروى جمع عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يروى عنهم جمع مثلهم ، وهكذا حتى يصل إلينا ، وهو عند التحقيق رواية الكافّة عن الكافة .

ويقول بعض علماء الأصول : الخبر المتواتر هو الذى اتصل بك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتصالا بلا شبهة ، حتى صار كالمعايَن المسموع منه ، وذلك أن يرويه قوم لايحصى عددهم ، ولايُتوهم تواطؤهم على الكذب ، لكثرتهم وعدالتهم وتغايُر أماكنهم ، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله ، وذلك

مثل : القرآن والصلوات الخمس ، وأعداد الركعات ، ومقادير الزكوات .

الآحاد لاتفيد اليقين :

هذا هو التواتر الذى يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أما إذا روى الخبر واحد ، أو عدد يسير ولو فى بعض طبقاته ، فإنه لا يكون متواترا مقطوعا بنسبته إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما يكون آحاديا ، فى اتصاله بالرسول شبهة ، فلا يفيد اليقين .

إلى هذا ذهب أهل العلم ، ومنهم الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه ، وقد جاء فى الرواية الأخرى خلاف ذلك ، وفيها يقول شارح مسلم الثبوت (وهذا بعيد عن مثله ، فإنه مكابرة ظاهرة) .

وقال البزدوى : وأما دعوى علم اليقين ـ يريد فى أحاديث الآحاد ـ فباطلة بلاشبهة ، لأن العيان يرده ، وهذا لأن خبر الواحد محتمل لامحالة ، ولايقين مع الاحتمال ، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله .

وقال الغزالى : خبر الواحد لايفيد العلم وهو ـ أى عدم إفادته العلم ـ معلوم بالضرورة ، وما نقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل إذ يسمى الظن علما ، ولذا قال بعضهم : خبر الآحاد يورث العلم الظاهر ، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن ـ نقول والعمل بالظن جائز فى الفروع .

وقال الأسنوى : وأما السنة فالآحاد منها لايفيد إلا الظن .

وقال البزدوى تفريعا على أن خبر الواحد لايفيد العلم : خبر الواحد لما لم يفد اليقين لايكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد لأنه مبنى على اليقين ، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل .

وقال الأسنوى : إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن والشارع إنما أجاز الظن فى المسائل العملية ، وهى الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين .

وهكذا نجد نصوص العلماء من أصوليين ومتكلمين مجتمعة على أن خبر

الآحاد لايفيد اليقين ، فلا تثبت به العقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضرورى ، لايصح أن ينازع أحد فى شىء منه ، ويحملون قول من قال : إن خبر الواحد يفيد العلم ، على أن العلم بمعنى الظن ...

ثم قرأت بعدئذ كتاب « منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوى » فأدركت أنا على حق ، وأن شيوخنا كانوا يقررون الصواب .

يسوق الدكتور المؤلف صلاح الدين بن أحمد الأدلبى هذه النصوص الكاشفة ، فلتتدبرها معه :

« قال الخطيب البغدادى : (ولايقبل خبر الواحد فى منافاة حكم العقل ، وحكم القرآن الثابت المحكم ، والسنة المعلومة ، والفعل الجارى مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به ، وقال : وكل خبر واحد ، دل العقل ، أو نص الكتاب ، أو الثابت من الأخبار ، أو الإجماع ، أو الأدلة الثابتة المعلومة ، على صحته ، وجد خبر آخر يعارضه ، فإنه يجب اطراح ذلك المعارض ، والعمل بالثابت الصحيح اللازم ، لأن العمل بالمعلوم واجب على كل حال) .

فقد جعل الخطيب البغدادى خبر الآحاد غير مقبول فى الحالات التالية :

١ ـ إذا كان منافيا لحكم العقل .

٢ ـ إذا كان منافيا لحكم القرآن الثابت المحكم ، أى إذا كان الحكم المستفاد من النص القرآنى ثابتا محكما ، أما منافاته لحكم ظنى الدلالة من نص القرآن فلا توجب رده !

٣ ـ إذا كان منافيا للسنة المعلومة ، أى إذا كانت السنة قد ثبتت بطريق العلم لا بالظن .

٤ ـ إذا كان منافيا للفعل الجارى مجرى السنة ، ولعله يعنى إذا كان الخبر منافيا لعمل السلف المتفق عليه ، الثابت بطريق العلم لا بالظن .

٥ ـ إذا كان منافيا لأى دليل مقطوع به .

٦ ـ إذا كان معارضا لخبر آحادى آخر ، وكان ذلك الخبر مما ثبتت صحته عندنا بدلالة العقل ، أو دلالة نص الكتاب ، أو دلالة الثابت من الأخبار

الأخرى أو دلالة الإجماع ، أو ماسوى ذلك من الأدلة الثابتة المعلومة .

وقال ابن الجوزى : واعلم أن الحديث المنكر ، يقشعر له جلد طالب العلم وقلبه فى الغالب . وقال : لأن المستحيل لو صدر عن الثقات رُدّ ، ونسب إليهم الخطأ ، ألا ترى أنه لو اجتمع خلق من الثقات فأخبروا أن الجمل قد دخل فى سم الخياط ، لما نفعتنا ثقتهم ، ولا أثرت فى خبرهم ، لأنهم أخبروا بمستحيل ، فكل حديث رأيته يخالف المعقول ، أويناقض الأصول ، فاعلم أنه موضوع ، فلا تتكلف اعتباره .. !

وقد لخص ابن الجوزى بحوثا كثيرة بهذه الكلمة الجامعة وهى قوله : « فكل حديث رأيته يخالف المعقول أو يناقض الأصول ، فاعلم أنه موضوع » .

وهنا تجىء العلاقة بين صحة السند وصحة المتن :

يقول ابن القيم فى هذا : « وقد علم أن صحة الإسناد شرط من شروط صحة الحديث ، وليست موجبة لصحة الحديث ، فإن الحديث إنما يصح بمجموع أمور ، منها صحة سنده ، وانتفاء علته ، وعدم شذوذه ونكارته » .

ومن دقة نظر المحدثين ، أنهم يحكمون للحديث بأنه « صحيح الإسناد » وقد يقولون : « صحيح » ، وبينهما فرق كبير ، فالتعبير الأول دون الثانى ، لأن الأول يتكلم عن الإسناد وحده ، والثانى يشمل الإسناد والمتن .

ـ درجة القطع بصحة الصحيح :

تعمق علماء الحديث أكثر من ذلك ، فبحثوا فى الحديث الصحيح ، وهو ماصح سنده ومتنه ، هل نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ، فيما ظهر لنا حسب اجتهادنا ؟ أو على وجه القطع فى حقيقة الأمر والواقع ؟ وإذا لم يكن قطعيا فإنه لايوجب العلم ، ولكن يوجب العمل بمقتضاه أما إذا قلنا بأنه قطعى فإنه يوجب العلم .

قال جماعة من أهل الحديث ، منهم الحسين الكرابيسى : إن الحديث الصحيح الآحادى قطعى ، وإنه يوجب العلم والعمل جميعا ، وهو رأى ابن حزم .

وقال جمهور أهل الحديث والفقه ، منهم الشافعى والباقلانى والعراقى : إن المراد من قولنا : « هذا حديث صحيح » أى فيما ظهر لنا ، عملا بظاهر الإسناد ، لا أنه مقطوع بصحته فى نفس الأمر .

وقال العراقى : « هذا هو الصحيح » أى فما عداه باطل ...!

وكلامهم فى الحديث الصحيح هنا يتعلق بأحاديث الآحاد ، أما الحديث المتواتر فإنه مقطوع به ، ويوجب العلم والعمل ، وهذا باتفاق العلماء .

ـ درجة أحاديث الصحيحين :

إذا وصل حديث فى صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، إلى درجة التواتر ، فإنه يصبح بذلك قطعى الثبوت ، فلا اختلاف فيه ...

أما بقية الأحاديث فيهما ، وهى المروية بطريق الآحاد ، فهل ينطبق عليها ماتقدم فى درجة القطع بصحة الصحيح ؟

قال ابن الصلاح : إن ما أخرجه الشيخان أو أحدهما فهو مقطوع بصحته .

وخالفه جمهور العلماء ، بل قال العراقى : « وخالفه المحققون » .

ويرى ابن الصلاح أن الأمة حيث تلقتهما بالقبول ، فكأن هذا إجماع على صحتهما ، وأن كل مافيهما صحيح سندا ومتنا .

ولكن الجمهور لايرون أن الأمة قد اتفقت على صحة هذين الكتابين ، بل الاتفاق إنما وقع على جواز العمل بما فيهما ، وذلك لاينافى أن يكون مافيهما ثابتا بطريق غلبة الظن ، لا القطع ، فإن الله لم يكلفنا بدرجة القطع فى تفاصيل الأحكام العملية ، ولذلك يجب الحكم بموجب البينة ، وهى لاتفيد إلا الظن .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث الصحيح الآحادى ، قد تحفُّ به قرائن مؤيدة مؤكدة ، فينتقل من درجة الظن إلى درجة القطع فى الثبوت ، أو إلى مايقرب منها ، وربما كان هذا منطبقا على كثير من أحاديث الصحيحين ، لكن لا يمكن تعميمه على جميعها .

يتضح مما سبق ، أن الحديث يعرض على معايير نقد المتن ، حتى ولو كان صحيح السند ، بل الحديث الصحيح الآحادى ليس مقطوعا بصحته سواء أكان

فى الصحيحين أو غيرهما ، وصحته ثابتة بطريق غلبة الظن ، مادام غير متواتر ولا مدعم بالقرائن المؤيدة .

الخلافات فى الكلاميات والفقهيات

فى مناقشة رسالة جامعية أورد الطالب نقلا عن ابن القيم ، يتوقف فيه عن النفى والإثبات إذا ماسئل : هل الله جسم ؟

قلت للطالب : من الخير ترك هذا التوقف ! فقد اتضح أن الجسم مادة ، وعرفتْ خصائص المادة من تحيز وقصور ذاتى ، وغير ذلك ... وعلينا أن نجيب بنفى الجسمية دون تردد ..

ولعل ذلك أدنى إلى معنى الآية الكريمة « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] وأحسب أن ابن القيم لو كان حيا لفعل ذلك ..

وقد قاوم الطالب قليلا ، ثم رأى مع اللجنة حذف هذه الفقرة ..

وساءنى أن أحد الناس سألنى : أتكره ابن القيم ؟ فقلت على عجل : كلا ، بل إنى شديد الحب له ، كثير الإفادة من علمه وأدبه ، ولا علاقة بين البحث العلمى ومشاعر الحب والكره كما تتصورون ، إننى طالب علم وناشد حق وحسب !

واستليت : مع أنى أميل أحيانا إلى الفقه الحنفى ، فإنى جانح بفؤادى وإعجابى إلى الشافعى وهو يقول عن علمه : وددت لو انتشر هذا العلم دون أن يعرف الناس صاحبه ! ليتنا نرزق هذا الإخلاص ..

ومع ضيق بتساهل صاحب المسند فى إيراد بعض المرويات ، فإنى أتبعه بإعزاز عميق وهو يستكبر على الدنيا ، ويستعف عن مآربها ، ويستصغر المال والجاه والحكم وهو يدرس للناس ..

إن هؤلاء الأئمة الكبار شيوخنا جميعا عن جدارة .. والبحث العلمى بصوابه وخطئه لايعكر مايجب للعلماء من توقير ...

---

(١) الشورى: ١١.

بيد أن بعض الفتية يوقدون فى عصرنا هذا فتنا مخوفة ،بسوء مسلكهم ! هل نحوِّل المسجد إلى ساحة حرب لأن البعض فى رمضان يريدون صلاة التراويح ثمانيا ، والآخر يريدها عشرين ؟!

قلت لمن يريدها ثمانيا : صَلِّ مع الجمهور العدد الذى ترى ، ثم انصرف فى هدوء ! قال : إنك تكره السنة.! قلت : بل أكره الفتن ماظهر منها ومابطن ..

وكم من سنن تريدون إحياءها كما تزعمون ، لاتزيد الأمة إلا بلاء .. إن تحديد نافلةٍ مَّا لايجوز أن يخلق أزمة ، وإذا كان قيام نافلة سيهدم فريضة فلا أقامها الله .

إننا أمة تحمل دعوة التوحيد ، وتقدم للعالمين رسالة الحق والخير ، فهل يجوز فى هذا الميدان الحادّ أن تشغلوا الناس عن الأصل الكبير بآرائكم الصغيرة ؟!

اجمعوا الناس على الفرائض والفضائل ، وتساهلوا فى المستحبات ، وأصلحوا ذات البين ، وإذا كان لأحدكم رأى فى قضية ثانوية فليتنازل عنه ، أو يؤجله للمستقبل !

ما معنى أن تذهبوا إلى انجلترا حيث تملكها امرأة ، وتحكمها امرأة ، ويسودها ازدهار رائع ، فلا يكون لكم كلام إلا أن ولاية المرأة لاتجوز ؟!

ماذا عليكم لو شغلتم أنفسكم وشغلتم الناس بشرح عقيدة التوحيد ، وبيان آثارها النفسية والاجتماعية ..؟

وماذا عليكم لو طال الحديث فى الكمال الإلهى ، والضعف البشرى والجزاء الأخروى ؟

إننى أذكر هذا الكلام بين يدى فتوى أصدرها الأزهر الشريف حسما لفتن شديدة أشعلها فتية أغرار ، باسم إقامة السنة وتحت عنوان السلفية ..

وقد توسعت الفتوى فى شرح الأحكام والأدلة ، حتى تسدّ الطرق أمام أصحاب الشغب والغرض ...

السيد الأستاذ رئيس لجنة الفتوى ـ الأزهر الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فهل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافرا أم لا ؟

نرجو الإفادة بالرأى مع الاستدلال . وشكرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد

تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام :

١ ـ الواجب : وهو مايثبت طلبه من المكلف ، بنص صريح قطعى الثبوت وقطعى الدلالة . (بمعنى أن له معنى واحدا فلا يختلف فى معناه المجتهدون) من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

٢ ـ المحرم : هو ماطلب الشارع من المكلف تركه ، بدليل قطعى الثبوت وقطعى الدلالة ، من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

٣ ـ المندوب : ما طلب الشارع فعله طلبا غير حتم ولاجازم ، يثاب على فعله ولايعاقب على تركه .

٤ ـ المكروه : ما طلب الشارع تركه طلبا غير حتم ، ويثاب على تركه ولايعاقب على فعله .

٥ ـ المباح : ماخير المكلف بين فعله وتركه ، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم .

وتنقسم السنة إلى : متواترة وآحادية .

فالمتواترة هى مارواها جمع عن جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب .

قال الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة ص ٣٧ : « وإثبات التواتر فى الحديث عسر جدا »

وقال الشاطبى فى الجزء الأول من الاعتصام ص ١٣٥ : « أَعْوَزَ أن يوجد حديث المتواتر واختلاف علماء السنة على ثبوته وعدده ، يرى الجمهور أن من أنكر

استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر ـ أقول : أغلب السنن العملية متواترة ...

والسنة الآحادية : هى مارواه عدد دون التواتر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ وقد اختلف العلماء فى استقلال السنة الآحادية بإثبات واجب أو محرم .

فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك فى الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر ، ومن أنكر ذلك فى الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات ، وأخبار الآخرة والغيبيات ، فهو غير كافر ، لأن الأحكام العلمية لاتثبت إلا بدليل قطعى من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الآحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم ، سواء كان الواجب علميا أو عمليا ، وعليه فلا يكفر منكرها ، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية ، فقال البزدوى : « دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة ، لأن خبر الآحاد محتمل لامحالة ، ولايقين مع الاحتمال ، ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه وأضل عقله » .

وبهذا أخذ الإمام محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمود أبو دقيقة وغيرهم .

يقوم المرحوم الإمام محمد عبده : « القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته ، أما ماعداه مما ورد فى الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أم ضعف ، فليس مما يوجب القطع .

كما ذكر الشيخ شلتوت فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » قوله[1] : « إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند) ، ومن جهة الدلالة (المعنى) كالشبهة فى اتصاله والاحتمال فى دلالته .

ويرى الإمام الشاطبى فى كتابه « الموافقات » أن السنة لاتستقل بإثبات الواجب والمحرم ، لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن ، وتقييد مطلقه ، وتفسير مجمله ،

---

(١) سبق ايراد النص كاملاً .

ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواترة لا الآحادية .

ويؤيد آراء من سبق ذكرهم ماجاء فى صحيح البخارى ، باب الوصية (وصية الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته) :

عن طلحة بن مصرف قال : سألت ابن أبى أوفى : هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا . قلت : كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بها ولم يوص ؟ قال : أوصى بكتاب الله .

قال ابن حجر فى شرح الحديث : « أى التمسك به والعمل بمقتضاه ، ولعله أشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله»[1].

واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه فيه تبيان كل شيء ، إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط ، فإذا اتبع الناس مافى الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به .

وحديث سلمان الفارسى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الحلال ما أحله الله فى كتابه، والحرام ما حرمه الله في كتابه، وما سكت عنه فهو عفو لكم»[2].

وأجاب الشاطبى عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى : « أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ »[3] : بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو في تخصصه للعام، وتقييده للمطلق، وتفسيره للمجمل، وذلك بالحديث المتواتر.

وإن كل ما جاء به النبي ﷺ يجب أن يكون من القرآن، لقول عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «كان خلقه القرآن»[4]، وأن معنى قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ »[5]، أن السنة داخلة فيه في الجملة، وأكد الشاطبي ذلك بقوله تعالى: « مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ »[6].

وقد رد على مااستدل به الجمهور مما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قوله : « يوشك أحدكم أن يقول : هذا كتاب الله ، ما كان من حلال فيه أحللناه ، وما

---

(١) فتح الباري في شرح البخاري (٥:٣٦١).
(٢) رواه الترمذي في اللباس وابن ماجة في الأطعمة.
(٣) سورة النساء: ٥٩.
(٤) رواه مسلم في المسافرين.
(٥) سورة النحل: ٨٩.
(٦) سورة الأنعام: ٣٨.

كان من حرام حرمناه ، ألا من بلغه منى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله»[1]، بأن من بين رواة هذا الحديث «زيد بن الحباب»، وهو كثير الخطأ، ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثا واحدا[2]، وجاء بمسلم الثبوت والتحرير:

« خبر الواحد لايفيد اليقين ، ولافرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما » .

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لايثبتان إلا بالدليل اليقينى القطعى الثبوت والدلالة ، وهذا بالنسبة للسنة لايتحقق إلا بالأحاديث المتواترة ، وحيث إنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها ، فإن السنة لاتستقل بإثبات الإيجاب والتحريم ـ إلا أن تكون فعلية أو تنضاف إلى القرآن الكريم ـ .

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمة، ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافرًا..»[3].

ونحن نورد هذه الفتوى لنواجه بها جملة من الأخبار الواردة فى العقيدة تكاد توهم التجسيم ، وعلماؤنا لايقبلون فى أمور العقيدة إلا المتواتر .

أما حديث « أن الله يقعد على عرشه أو كرسيه كما يقعد الراكب على رحله ، حتى إن العرش ليصوِّت من عظمته وثقله»[4]، أو حديث أن هناك ثمانية أوعال تحمل العرش[5] أو ما أشبه ذلك من مرويات الآحاد، فإن العلماء انصرفوا عنها، ولم يأخذوا منها حكما شرعيا..

ولنضرب مثلا لمسلك البعض بإزاء هذه الأحاديث :

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها ، أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضى الله عنها إليها شيئا من المعروف ، إلا قالت : لها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) هو راوٍ مختلف فيه، وَثَّقه ابن معين وابن المديني.. وقال أحمد: صدوق كثير الخطأ.

(٣) أصدر الفتوى الشيخ عبدالله المشد ـــ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ـــ في ١٩٩٠/٢/١.

(٤) (٥) للشيخ محمد زاهد الكوثري رأي في هذين الحديثين.

اليهودية : وقاك الله عذاب القبر .. ! قالت عائشة رضى الله عنها : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ ، فقلت : يارسول الله ، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « لا ، من زعم ذلك » ؟ قالت : هذه اليهودية ، لا أصنع لها شيئا من المعروف إلا قالت : وقاك الله عذاب القبر. قال صلى الله عليه وسلم : « كذبت يهود ، وهم على الله أكذب ، لاعذاب دون يوم القيامة»[1]. ثم مكث بعد ذلك ماشاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار ، مشتملا بثوبه ، محمرة عيناه ، وهو ينادى بأعلى صوته : القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس ، لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا ، أيها الناس ، استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق»[2]، وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه .

ولنا على هذا الحديث تعليق ، فهو يخالف ثلاث آيات فى كتاب الله ، الأولى فى الأنعام : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ...»[3]، والثانية في غافر «ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ»[4] والثالثة في الانفال «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ»[5].

كما يخالف أحاديث كثيرة جدا أثبتت عذاب القبر وثوابه ، منها : مناداة النبىّ عليه الصلاة والسلام للكفار بعدما رميت جثثهم فى قليب بدر : هل وجدتم ماوعد ربكم حقا؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا[6].

ومنها: مروره على قبرين — كما روى البخاري وقوله: يعذبان وما يعذبان في كبير..[7]!

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦:٨١، ١٦٤).
(٢) نفس الحديث.
(٣) سورة الأنعام: ٩٣.
(٤) سورة غافر: ٤٦.
(٥) سورة الأنفال: ٥٠، ٥١.
(٦) رواه البخاري في الجنائز والمغازي ورواه مسلم والنسائي وأحمد.
(٧) رواه البخاري.

والشواهد فى هذا المجال فوق الحصر ، فكيف يقال : إنه لم يكن يدرى عذاب البرزخ ؟! حتى جاءت يهودية فتحدثت عنه ؟!!

إن القرآن النازل عليه بمكة والمدينة يشير إلى أن الحياة الإنسانية متصلة قبل الموت وبعده ، وأن البشر يثابون أو يعاقبون عقيب رحيلهم عنا ! فأنى ينكر الرسول ذلك ..؟!

وقد رأى ابن كثير أن يؤول الآيات ويحافظ على الحديث الغريب ، فزعم أن الآيات تثبت عذابا روحيا غير عذاب القبر الحسىّ ! وهذا وهم !!

هل ضرب الوجوه والأدبار من العذاب الروحى ؟! هل تداخل العظام من ضمّة القبر من العذاب الروحى ؟!

إن الانحصار فى السند والذهول عن المتن ، باب إلى عجائب رفضها علماؤنا المحققون .

والفتوى التى نقلناها تشير بشىء من الإجمال إلى رأى الأزهر فى ضرورة التعويل على القرآن أولاً ، وإلى أن العقائد لا تستقل بإثباتها أخبار الآحاد .

وما نوصى به هو تدبر القرآن الكريم ، وإدامة النظر فيه ، واستصحاب معانيه عند قراءة السنن .

أما أن يكون المرء عابر طريق أمام آيات الله ، ومطيل المكث أمام بعض الأخبار ، فهذا غير سائغ ..

لايجوز أن يكون المرء أعشى أمام القرآن ، وحادَّ البصر أمام الأحاديث ، وقد سمعت كلمات سمجة فى هذا المجال ! قال بعضهم : حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب .. وهذه موازنة خاطئة ...

نحن نؤمن بالكتاب والسنة معاً ، ونؤمن بأن السنة فرع والكتاب أصل ، ونؤمن بضرورة الاستيقان من أن الرسول قال ، وأن هذا الاستيقان لايتم إلا بوزن السند والمتن جميعا ..

وهذا منهج العلماء الراسخين والرجال الثقات ، ولاتعويل على من دونهم !!

إن العلم الإسلامى استبحر ، وساند حضارة عظيمة يوم قام على الحقائق ، فلما خالطته الخرافات والأوهام هوى ، وهوت الأمة كلها معه ...

وأعود إلى حديث اليهودية التى ذكَّرتْ البيت النبوىّ ! بالجزاء الأخروى وثواب القبر وعذابه ! وكان من قبلُ لايدرى ! !

من أين أتت بهذا الحديث ؟ إن أسفار موسى الخمسة فى العهد القديم ، أعنى التوراة ، ليس بها مايشير إلى جنة أو نار ، أو ثواب أو عقاب !

لقد تحولت التوراة إلى كتاب مادىّ يخصّ شعبا يبحث عن الحياة والتميز فوق هذا التراب .

ولايستعد للقاء الآخرة بفعل خير أو ترك شر .. ويكاد الثواب المرتقب يكون فى هذه الحياة الدنيا وحدها ... !

إن اليهود آخر أهل الأرض تطلعا إلى الآخرة وحفاوة بمقدماتها .

نعم وجد حديث مقتضب فى بعض الأسفار عن الجنة والنار وعالم الروح .. حديث مقتضب جدا ..

ومن ثم فأنا شديد الريبة فيما نسب إلى هذه اليهودية من كلام عن ثواب القبر وعذابه ...،

الحديث من ناحية المعنى مخالف للقرآن الكريم ، ولسُننٍ يمكن الحكم عليها بالتواتر المعنوى .

ثم مجيئه عن طريق يهودية كمجئ الماء عن طريق الصحراء الكبرى ، أمر يشبه خوارق العادات .. ومع ذلك يقال : إنه على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه !

إن البخارى أرشد من أن يذكر هذا الحديث وكذلك تلميذه مسلم ، فالسند القائم لايخدم متنا مضطربا ....

والخلاصة أن السنة لاتكون إلا بيانا للقرآن ، بيانا يتَّسق مع دلالاته القريبة والبعيدة ، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكما يخالف القرآن الكريم .